أين نحن الآن؟
وما العَمَل؟

وبعـد

ذكرت فيما تقدم قصصاً أبطالها أفراد أو جماعات أعربت أعمالهم وتصرفاتهم عن عمق إيمانهم وشدة تمسكهم بالمبادئ الفاضلة والمثل العالية التي علمهم إياها الإسلام، وكانت هذه التصرفات عفوية غير متكلفة دفع بعضهم ثمنها غالياً، وكادت في بعضها تعرض أصحابها للأذى أو لأكثر من الأذى، ومع ذلك لم يترددوا في أعمالهم ولا خافوا من مغبتها لأن قناعتهم بصدق ما يفعلون أكبر من أن يحسب معها أي حساب، وما زال أمثال هؤلاء الناس موجودين في كل بلد تصديقاً لقول الرسول الكريم: «ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق».

وما أحوج كل البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر إلى أن يكون كل فرد فيها مثل هؤلاء الأبطال، يتحلى في مجال عمله وتخصصه بأخلاق الإسلام، ويعمل على الخلاص مما ترزح تحته البلاد من بلاء عمّ كل أرجائها، ولا خلاص لها منه إلا بالعودة للإسلام الحق ومنهاجه القويم.

خضعت معظم الدول الإسلامية لاحتلال الدول الأجنبية لمدد مختلفة وبحجج متباينة لا يفيد الدخول في تفاصيلها الآن. وقد اشتركت في ذلك عوامل كثيرة أهمها الجهل والسذاجة والاستهتار والتآمر والخيانة، واستطاعت هذه الدول الخلاص من الاستعمار الظاهر، ولكن معظمها لم

يتخلص من الاستعمار المقنع والسيطرة غير المباشرة بوساطة المنتفعين والحمقى والخونة، وما زالت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع الصهيونية العالمية - وبإيحاء وتحريض دائمين منها - تجاهر بالعداء للإسلام والمسلمين وتسعى جاهدة للقضاء عليه بكل وسيلة ممكنة، ذلك أنها تتهمه بالدعوة إلى الإرهاب وتتهم المسلمين بتنفيذ الإرهاب في كل أنحاء المعمورة.

ولما كانت القضية الهامة التي تشغل بال المسلمين منذ عدة عقود هي قضية فلسطين، وانضمت إليها بعد ذلك قضية أفغانستان ثم قضية العراق وأخيراً قضية لبنان، فقد أصبحت البقعة الجغرافية التي تضم هذه البلدان الأربعة - ومعظم سكانها من العرب - البقعة الأكثر سخونة في العالم، وتطور النزاع العربي اليهودي ليصبح نزاعاً إسلامياً - يضم العرب - غربياً أمريكياً يضم اليهود.

ونشأت عن خضوع معظم الدول الإسلامية للتأثيرات الأجنبية تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة، وعن تفكك المسلمين وانقساماتهم واختلاف ثقافاتهم وميولهم واتجاهاتهم ارتكاسات ومشاعر متباينة، الدافعُ إليها الإحباط واليأس أو الاستسلام والخنوع أو التمرد والنقمة، كما نشأت أفكار متباينة واتجاهات مختلفة لمواجهة هذا الواقع المؤلم، وأرى أنه يمكن تلخيص التيارات والأفكار الموجودة بما يلي:

١- يرى بعضهم صعوبة التخلص من واقعنا بمواجهة الدول الغربية لقوتها وضعفنا ولتقدمها وتأخرنا، ومن هؤلاء من يذهب إلى التسليم بالأمر الواقع لتشربه عظمة الغرب وحمله فكرة سيئة جداً عن واقعنا الخاص وماضينا الغابر، حتى لينكر كل ماضي العرب والمسلمين المشرق، ويصورهم بأبشع الصور، ولا يرى أمثال هؤلاء طريقاً للخلاص - إن كان يهتم بذلك - إلا بالسير في ركاب التقدم والحضارة الغربية

والانسلاخ عن ماضينا وحاضرنا انسلاخاً كاملاً.

٢- ويرى بعضهم الوقوف في وجه الحضارة الغربية بكل أشكالها؛ لأنها حضارة مزيفة والرجوع إلى حضارتنا السابقة، حضارة الإسلام والمسلمين لأن فيها كل شيء وفيها الطريق إلى الخلاص، مهما كانت الوسيلة التي توصلنا إلى ذلك، ولما كانت دول الغرب تواجهنا بالقوة والحرب فلا مجال لمواجهتها إلا بالقوة والحرب.

٣- أما قضية فلسطين فيرى بعضهم حلها بالطرق السلمية بالمفاوضات، في حين يرى غيرهم أن لا سبيل إلى حلها إلا بطريق المقاومة؛ لأن المفاوضات لم تجدِ حتى الآن ويبدو أنها لن تجدي بعد الآن..

والكلام في هذه المواضيع يسوق إلى الكلام عن الإرهاب وعن علاقة العرب بالغرب وعن السلوك الذي يجب سلوكه مما سأعرض له في الصفحات التالية.

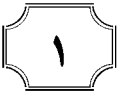

الإرهاب

أفضل وسيلة لنفي التهمة إلصاقها بالخصم الذي ينشغل بنفيها عن نفسه، فتضيع الحقيقة عن طالبي الحقيقة، ولا سيما حين ترافق ذلك حملات مضللة بكل الوسائل التي يمكن اتباعها في هذا السبيل. هذه الطريقة الخبيثة لجأ إليها اليهود ومؤيدوهم والآخذون بيدهم، وهل أخبث من اليهود وأمهر منهم في الكذب والغش والخداع والنفاق وتزوير الحقائق؟؟

يقال: إن جحا كان يدخن يوماً (شيشته) ويبدو أنه (زاد العيار قليلاً) وبدأ (يهلوس)، فزعم لمن حوله أن نفراً من قوم قصيري القامة لكل منهم أذنان طويلتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى حين ينام، سوف يمرون بعد يومين في مكان حدده لهم قرب قريته، وانتشر الخبر بين أهل القرية، وفي اليوم الموعود بدأ الناس بالتوافد إلى المكان الذي حدده جحا، ومر كثير منهم أمامه وحين سأل عن المكان الذي يقصدون أفادوه بالخبر وأنهم ذاهبون لرؤية هذه العجيبة! وضحك جحا سراً بادئ ذي بدء، ولكنه بعد قليل وحين رأى كل الناس يتوجهون إلى المكان الذي حدده، قال في نفسه: لا يعقل أن يكون كل هؤلاء الناس على خطأ ولا بد أن الأمر صحيح.. فنهض من مكانه ولحق بالقوم إلى حيث يذهبون!!

هذا ما جرى مع اليهود ومن لف لفهم؛ فقد كذبوا وكذبوا حتى جاز كذبهم على أنفسهم فصدقوا كذبتهم الكبرى، وبدؤوا يخترعون لها ملاحق ويمدونها بتعليقات وإضافات. وليس غريباً أن يعمل اليهود ومؤيدوهم ما عملوا، ولكن الغريب والمؤسف والمعيب المشين أن يصدق بعض العرب والمسلمين أكاذيب أحط الناس ودجلهم، وتأخذ بعضهم الحماسة فيتخذ مواقف تشبه مواقف اليهود، وقد تزيد عليها طلباً للبركة وكسباً للرضا، حتى قد تحمس أحدهم فوصف حركات المقاومة في لبنان وفلسطين بأنها عصابات، وما كنت أظن أن مسلماً أو عربياً يتجرأ على مثل هذا الكلام إلا أن يكون مسلماً بالهوية أو عربياً بالتبني!!

ولا أدري إن كان يعي زمن العصابات اليهودية التي كانت تعرف بهذا الاسم فعلاً في كل البلاد العربية والأجنبية؛ كعصابة شتيرن وعصابة الهاغانا وعصابة زفاي ليومي من العصابات التي كانت في زمن الاحتلال الإنكليزي لفلسطين تقوم بأعمال القتل والتخريب حتى ضد أولياء نعمتهم، وذلك في سبيل إنشاء الوطن اليهودي، أعتقد أنه لا يعي ذلك لأنه كان لم يخلق بعد، أما الحركات التي تناضل من أجل استرداد الأرض والدفاع عن الشرف الوطني فحري بكل مسلم وبكل عربي أن يضع على رؤوس العاملين فيها أكاليل الغار، وأن يقبل رؤوسهم وأيديهم صباح مساء، فقد رفعوا - لا اسم لبنان وفلسطين فحسب - بل رفعوا عالياً رؤوس كل العرب وكل المسلمين في كل أنحاء المعمورة، هم وأهلوهم الذين هدمت بيوتهم وقتل أطفالهم وشردت نساؤهم فصبروا، وما زالوا صابرين يتلقون الضربات الموجعة من البر والبحر والجو وهم محاصرون، قد قطع عنهم المتمدنون الديمقراطيون أنصار الحرية والعدالة والسلام أسباب العيش البسيط، حتى الدفء والغذاء والماء والدواء، وحتى الكلمة الطيبة أو نظرة العطف.

هؤلاء ليسوا عصابات ولا أنصار عصابات ولا إرهابيين ولا مساعدي الإرهابيين يا صاحب السعادة، بل هم عظماء هذه الأمة وشرفاؤها وأملها في تحريرها من الصهيونية اللئيمة وأنصارها الخبثاء، وسيتحقق ذلك إن شاء الله وأنف أعدائهم في التراب.

كيف قامت فيتنام وطردت (أصدقاءنا الأمريكان) من بلادها طرد الكلاب، لولا ما تسميه عصابات، أم أن عصابات فيتنام غير عصابات العرب، أو أن فيتنام كانت مخطئة ومن حررها كان خائناً جاهلاً؟؟ كيف انتصرت إيرلندة لولا هذه العصابات؟ وكيف طردت أفغانستان الإنكليز أولاً ثم الروس - وستطرد أحباءنا الأمريكان بإذنه تعالى - لولا هذه العصابات؟؟ أم أن أفغانستان لا ينبغي لها أن تطرد الغاصبين من أراضيها لأن الأرض ملك الله وقد وهبها الله لأحبائنا وقرة أعيننا الإنكليز والأمريكيين ومن لف لفهم وسار في فلكهم؟

كيف تحررت الجزائر لولا هذه العصابات، أم أن الفرنسيين غير اليهود والجزائريين ليسوا من طينة الفلسطينيين؟

كيف انسحب اليهود من لبنان فارين كالهررة لولا هذه العصابات، أم أن لبنان لا يستحق أن يعيش كريماً واليهود أحق باحتلال أراضيه وتشريفها بوجودهم الكريم؟

من العجيب الغريب أن يقر العالم بمؤسساته الرسمية (ولو أنها منحازة في كثير من الأحيان) حق الشعوب في الدفاع عن أراضيها بالوسائل التي تراها ومنها حق المقاومة، ثم (ينطز)[1] أحد أبناء هذه

(١) معذرة لاستعمال هذه الكلمة العامية التي تعني البروز الشاذ أو البروز غير المستحب أو البروز في غير الأوان، لأني لم أجد أكثر تعبيراً منها في هذا المقام.

الشعوب المظلومة المسلوبة المستباحة ليصف المقاومين بالعصابات بملء فيه في وسائل الإعلام دون أن يحمر وجهه خجلاً.

ولنعد الآن إلى أساس الكذبة الكبيرة التي خرج بها غير المأسوف عليه وعلى عهده وعلى أعوانه بوش الصغير، وهي أن الإسلام دين يدعو إلى الإرهاب، فهل يتكرم هو أو من يقول برأيه فيدلنا على المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة العظيمة؟

كلا، إن الإسلام يحرم الظلم على أي وجه وقتل الأبرياء ظلم فهو لذلك محرم في الإسلام حكماً، ومن صفات عباد الرحمن أنهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٦٩]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٣].

ولم يشرع القتال في الإسلام إلا بعد اعتداءات المشركين عليهم ومحاولتهم القضاء على المسلمين والإسلام ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠-١٩٤]، ويرى في هذه الآيات الكريمات شروط القتال وأنها تشرع حين الاعتداء على المسلمين وأنها يجب أن تقف إذا وقف هذا العدوان..

وقد أُمِر رسول الله بنشر الدعوة إلى الإسلام بالإقناع والإرشاد والموعظة الحسنة، وهكذا بدأت الدعوة، وهكذا أيضاً كان انتشار الدين الإسلامي الواسع في شرق آسية وفي إفريقية لما رأى أهل تلك البلاد من أخلاق المسلمين الكريمة ومن صدق التعامل معهم كما أمرهم الدين، ولم ينتشر بحد السيف كما يزعم بعضهم وإنما كان القتال لمن يقاتل المسلمين.

والبلاد التي فتحها المسلمون لم يجبروا أهلها على اعتناق الإسلام، وعلى العكس فقد احترموا دياناتهم ورجال دينهم وأماكن عباداتهم، وهو أمر معروف تاريخياً وأقر به مؤرخو الغرب، وكانت تطبق في القتال مع ذلك حين وقوعه أعلى القواعد الأخلاقية التي نودي ببعضها في الدول المتمدنة بعد ألف ومئتي سنة، ولكنها مع ذلك لم تطبق بل اخترقت وما زالت تخترق في كل حرب، ولا سيما في حروب العدوان والاغتصاب كحرب العراق وحرب أفغانستان وأخيراً في حرب غزة!!

الإرهاب شيء والمقاومة شيء آخر؛ فالإرهاب غير مشروع كما يدعي (المتمدنون) والمقاومة مشروعة كما يدعون هم أنفسهم، إذا كان هذا مقبولاً من الجميع فلماذا تحدث المقاومة؟ إنها تحدث رداً على عدوان وسعياً وراء استرجاع حق سلبه معتد ما ولم يرجعه بالحسنى، فلا بد من استرجاعه بالقوة، وهنا نسأل من المعتدي في كل حركات المقاومة منذ نشأتها وحتى الآن؟ ومن المعتدى عليه؟

هل هاجمت الجزائر فرنسة واعتدت على أراضيها أم أن فرنسة هي التي اجتاحت أراضي الجزائر لاستعمارها؟ هل اجتمع (حسن وسعيد) من بعض الدول الإسلامية وقررا تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى دويلات، أم أن سايكس وبيكو هما اللذان قررا تقسيم الدولة العثمانية إلى دويلات؟ هل هاجمت أفغانستان إنكلترة ثم روسية واعتدت على أراضيهما أم

أنهما هما اللتان هاجمتاها واعتدتا عليها الواحدة بعد الأخرى؟ هل حلقت الطائرات العراقية فوق أراضي الولايات المتحدة الأمريكية وقذفتها بالقنابل على اختلاف تراكيبها وأحجامها وأشكالها ثم أرسل العراق جيوشه الجرارة لاكتساح أراضيها أم هي التي فعلت ذلك في العراق؟ هل أرسل الفلسطينيون العرب قوات متعددة الجنسيات لكل بلاد العالم لضرب اليهود وقتلهم وتخريب بيوتهم وحرق مزارعهم وتشريد أطفالهم أم اليهود هم الذين تجمعوا في فلسطين من كل بلاد العالم (ليفلتوا) في أراضيها ويحرقوا المزارع ويهدموا البيوت ويقتلوا النساء والأطفال؟!

ولنسأل أي إنسان عاقل أو بنصف عقل له شيء من الكرامة، هل يرضى أن يعتدي عليه أحد فيسكت أم يحاول إزالة الاعتداء بكل وسيلة وبأي ثمن وفي أي زمن؟!

هذا هو واقع البلاد الإسلامية التي يعتدى عليها منذ عشرات العقود بحجج واهية وأكاذيب وادعاءات سخيفة، والغاية بالتأكيد معروفة مكشوفة هي الاستيلاء على ما في هذه البلاد من ثروات طبيعية منحها الله إياها، والسبب طَمَعُ الطامعين في سرقتها ونهبها ولو كذبوا ودجّلوا وحتى لو كشفت أكاذيبهم وظهر لؤمهم وخبثهم ودجلهم.

ادعت الولايات المتحدة على لسان رئيسها السابق غير المحترم أن العراق يملك أسلحة نووية، وأنه حاربه لمنعه من استخدام هذه الأسلحة (التي يجب أن تكون حكراً على الولايات المتحدة والسائرين في فلكها). ومع أن كذب هذا الادعاء قد ظهر فإن الولايات المتحدة لم تسحب جيوشها من العراق، ولا اعتذرت منه، ولا عوضته من خسائره التي لا تعوض، بل استمرت في حربها ضده وما زالت تهدم دوره وتقتل أبرياءه، وتنهب متاحفه وثرواته وتعيث فيه فساداً وكأنه بيت أبيها وأعز!! كل ما فعلته غير مشكورة أنها (أسفت) لأن استخباراتها (غشَّتها) فماذا

يفيد هذا الأسف؟ وفي أي مصرف يصرف؟ وتحت أي مادة من مواد القوانين الدولية يدخل؟ وفي أي كلية من كليات الحقوق يدرّس؟؟

إن الولايات المتحدة بجلال قدرها وبوصفها محتلة للعراق تدخلت وما زالت تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤونه، وكان أخطر ما تدخلت فيه القضاء الذي كان من نتيجته الحكم على رئيس العراق السابق بالإعدام، وقد أعدم في ظروف وحشية وكأن هناك ثأراً شخصياً بينه وبين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي كان حرياً به أن يُعدم هو لا شنقاً، بل بطريقة أخرى تليق بمقامه الكبير وشأن دولته العظيمة!

المقاومة إذن - وقد علمنا أنها حق مشروع - لا تنشأ من فراغ، وإنما هي جواب طبيعي عن الأعمال الاستفزازية وغير المشروعة التي تقوم بها دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا كانت هذه الدول ترغب جادة في إنهاء هذه المقاومات - أو كما يحلو لها أن تسميها زوراً وبهتاناً الإرهاب - فعليها بكل بساطة أن لا تمثل في كل مرة القصة المعروفة قصة الذئب والحمل الذي عكر عليه الماء، وأن توقف إرهابها هي وأن تنهي تسلطها بلا حق على بلاد الله وعباد الله وأن تترك شعوب العالم وشأنها، وسنرى أنها لن تكون عرضة لأي عمل يزعج خاطرها ويعكر صفو حياتها، وستعيش بسلام وأمان وستوفر مليارات الدولارات التي تنفقها في سبيل هذه المكافحة المزعومة للإرهاب الذي تصنعه هي وتموله هي وتصعّده هي، ولكن هذا لا يروق لتجار الحروب المنتشرين في هذه البلاد المتمدنة جداً، والذين لا يهنأ لهم بال ولا يصلح لهم حال إلا إذا خربوا الدنيا فوق رؤوس أهلها، ولكن الله بالمرصاد وعلى الباغي أخيراً تدور الدوائر بإذن الله.

٢

الشرق و الغرب

بعض الناس مبهورٌ بحضارة الغرب لدرجة الهوس، وقد يكون على حق لو اقتصر الأمر على ذلك ولم يتعده إلى احتقار كل ما لدينا لدرجة الهوس أيضاً. وقد قرأت مؤخراً كتابين أحدهما لكاتب أردني والآخر لكاتب بحريني، لا أريد ذكر اسميهما ولا اسم كتابيهما، وصدمت لما جاء في هذين الكتابين من أفكار أقل ما يقال فيها إنها تدعو إلى الأسى على المستوى الذي وصل إليه احتقارنا لأنفسنا، لدرجة أصبحنا ندعو فيها إلى الانسلاخ عن حاضرنا والتنكر لماضينا الذي يصوره الكتابان - وكأنهما يستقيان من نبع واحد - بأنه أسود من الفحم وأحط من القذر، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على درجة الإحباط التي وصل إليها هذان الكاتبان وأمثالهما ممن يشاطرهما رأيهما مع الأسف الشديد.

لا شك أن الحضارة الغربية وصلت إلى درجة مذهلة من التقدم الذي يسير بشكل متسارع جداً، وما ظهر من اكتشافات واختراعات في العقود الخمسة الماضية وتطورها السريع فاق ما حققه الإنسان في كل ما تقدم من وجوده. وإذا كنا نسمي هذا حضارة فلنر ماذا أفادت هذه الحضارة وبماذا أضرت؟

أفادت الحضارة في تطوير الصناعات المختلفة وتحويلها من عمل يدوي إلى عمل آلي أقل جهداً وأكثر إنتاجاً، وفي تطوير وسائل المواصلات وقطع المسافات الطويلة بمدد قصيرة خيالية، وفي نقل المعلومات بوسائل أوفر وزمن أقصر وإلى عدد من الناس أكبر، وفي تسهيل أعمال الناس اليومية واختصار الوقت اللازم لإنجازها سواء منها الأعمال اليدوية أو الأعمال الفكرية، وفي الحصول على منتجات غذائية بكميات أوفر في أي فصل من فصول السنة وبمواصفات معدلة، ولا أقول أفضل، وفي القضاء على كثير من الأمراض بما استُحدِثَ من وسائل الكشف وطرائق المعالجة الدوائية أو الجراحية، وغير هذا من فوائد كثيرة، ولكن هل كل هذه الفوائد خالية من الأضرار؟ وهل هناك أمور أخرى أدت إلى أضرار دون فوائد؟ بكلمة أخرى هل كانت نتيجة هذه الحضارة رابحة أم خاسرة؟ الواقع أن كفتي الربح والخسارة تتأرجحان زيادة أو نقصاً بحسب الحالات.

ففي الصناعات الثقيلة وتطورها يجب ألَّا ننسى الفضلات الناجمة عن الاحتراق وإفسادها البيئة، وكذلك في وسائل المواصلات عدا التعرض هنا للحوادث التي يذهب ضحيتها المئات أحياناً، والمنتجات الغذائية التي أصبحت متوافرة بكثرة يجب ألَّا ننسى سوء الأغذية لا من حيث فقدها طعمها ونكهتها الأساسيين فحسب، بل من حيث المواد الضارة الموجودة فيها من هرمونات وأصباغ وما تسببه من أمراض، عدا ما ثبت بالبرهان القاطع من تأثير الأشربة والأطعمة الجاهزة في الصحة وانتشار أمراض التغذية من سكري وبدانة وغيرها حتى السرطان.. وفي الطب والعلاج يجب ألَّا ننسى التأثيرات الجانبية لبعض المواد الكيميائية المستعملة في تركيب الأدوية التي تظهر بين حين وآخر بشكل واسع فتسبب التشوهات والسرطانات وغيرها، وتمنع لذلك من التداول، ولكن

بعد فوات الأوان. وإذا كانت هناك أضرار قليلة ومحددة من كل ما تقدم فهناك أخطار كبيرة وكبيرة جداً ينتظر ظهورها بعد حين من الزمن قد تؤثر في مستقبل الإنسانية والحياة على وجه الكرة الأرضية؛ مثل ثقب طبقة الأوزون، وانتشار الغبار الذري المنبعث من المفاعلات النووية والأسلحة التي استعملت وتستعمل في الحروب.

هذا ما يتعلق بالحضارة المادية وأمرها أقل أهمية من الحضارة المتجلية في العلاقات الإنسانية والقانونية والأخلاقية. ففي الغرب - كما يرى بعضهم - الديمقراطية وفي الغرب الحرية، وفي الغرب الإيمان وصدق التعامل وتطبيق النظام. ولذلك كان الغرب وفي طليعته الولايات المتحدة الأمريكية المثل الأعلى لكثير من الشباب الذين يحاولون الحصول على جنسيتها بشتى الطرق، ومنها إرسال زوجاتهم الحوامل للولادة هناك والتشرف بالحصول على الجنسية منذ نعومة الأظفار، ثم العيش في تلك البلاد النائية والذوبان عشقاً وغراماً بجمالها وكمالها! فهلا سألنا أنفسنا عن واقع الحال في هذه البلاد التي أعمت دعاياتها عيوننا، وأفسدت توجيهاتها وسياساتها ضمائرنا ونفوسنا، وشوهت أعمالها صورة الحضارة التي نتوق إلى أن نتابع خطاها في بلادنا؟؟

ولنبدأ بدعوى الديمقراطية، وهي حسب التعريف المتفق عليه حكم الشعب بالشعب لمصلحة الشعب، فأين هذه الديمقراطية في الولايات المتحدة؟

١- من المعروف والمشهور أن الانتخابات التي تجري هناك تتم بتوجيه الرأسماليات و(التروستات) الكبيرة من جهة بما فيها تجارة الأسلحة والنفط ومافيات المخدرات، وتوجيه الصهيونية الممتدة كالأخطبوط في مرافق الحياة الأساسية، ولا سيما المال والإعلام من جهة ثانية، فهاتان القوتان تسيران الانتخابات للجهة التي تريدان.

٢- ولنفرض جدلاً أن الانتخابات حرة ونزيهة وليست تحت تأثير أحد، وأن الشعب واعٍ ويعرف مصلحته ويميز الخبيث من الطيب، وهو ليس كذلك، فإن المتقصي لنتائج الانتخابات في الدورات الماضية يجد أن ترجيح أحد مرشحي الرئاسة على الآخر يكون بفارق أصوات قليلة لا تتعدى المئات أحياناً، وليس لهذه المئات شأن أمام عدد الناخبين المقدر بالملايين، وآخر مثل على هذا فوز بوش الصغير على منافسه في انتخابه أول مرة بفارق بضع مئات كانت موضع جدل وتحقيق ودراسة لجان...إلخ. ومعنى هذا أن نصف الشعب الأمريكي غير راضٍ عن الرئيس المنتخب!!

٣- ولنفرض كذلك جدلاً أن الناخبين يثقون بالمرشحين الاثنين، وترجيح أحدهما على الآخر لا قيمة له، وقد يكون لأمور شخصية أو ثانوية لا تؤثر في سياسة البلاد وبرامجها؛ كوسامة المرشح أو جاذبية حديثه أو جمال زوجته! فماذا يجري حين استلام الرئيس مهام عمله؟ ما نراه أنه يصبح دكتاتوراً مقنعاً بقناع ديمقراطي فينفذ ما يريد، ولو كان ضد إرادة شعبه، والمثل الحي الصارخ الذي شاهدناه في أيام حكم بوش الصغير حرب العراق التي قامت ضدها ثم ضد استمرارها عشرات المظاهرات، لا في البلاد العربية ولكن في الولايات المتحدة نفسها، ومع ذلك استمرت الحرب واستمر بوش في إرسال المزيد من القوات لاستمرار أوارها في الاشتعال، ولتحميل بلاده بلايين الدولارات وتخليف آلاف القتلى وعشرات آلاف المشوهين والمعتوهين في أمريكة نفسها، عدا ما أصاب الولايات المتحدة من سوء السمعة، وعدا الكارثة الاقتصادية التي تركها وامتد تأثيرها إلى معظم بلاد العالم.

فهل كل هذا ديمقراطية يا محبي الديمقراطية وعشاقها!!

ومن العجب العجاب أن رائدة الديمقراطية ومعلمتها في العالم (الحر)، وإثباتاً لحسن نياتها للعالم (اللا حر) وحرصاً منها على تقدم هذا

العالم تسعى جاهدة إلى نشر الديمقراطية وإذاعتها في الدنيا كلها، لذلك هاجمت العراق لتخليصه من الدكتاتورية، وهاجمت أفغانستان لتخليصها من الرجعية، وربما تخطط لمهاجمة إيران لأنها أحد أركان (محور الشر)، ولكنها لم تنس في طريقها محاربة الحكومة التي نجحت في فلسطين بانتخابات شهد العالم بأجمعه أنها كانت نزيهة ومعبرة عن رأي الشعب الفلسطيني وتطلعاته، ولكن الديمقراطيةَ التي أوصلت هذه الحكومة إلى الحكم غيرُ الديمقراطية التي تريدها الولايات المتحدة الأمريكية لأنها (غير شكل)، لذلك يجب القضاء عليها ولكن بأسلوب ديمقراطي يتمثل في هدم دور السكن ومدارس الأطفال وبيوت العبادة، وفي تشريد النساء وتيتيم الأطفال واستعمال القنابل العنقودية والأسلحة المحرمة، وهذا كله ديمقراطي بديمقراطي!!

وحرصاً من الولايات المتحدة كذلك على نشر الديمقراطية لا تستحي وزيرة خارجيتها أن تصرح في وسائل الإعلام جهاراً نهاراً بأن بلادها ترجح أو ترغب أو ترتاح - لا أدري ما هو التعبير الدبلوماسي الديمقراطي الذي استعملته- لفوز أحد الفريقين المتنافسين على الآخر في الانتخابات اللبنانية!!

وتدخل بلد ما في الشؤون الداخلية لبلد آخر هو قمة الديمقراطية حسب كل التعاريف والأعراف والتقاليد الدولية المعمول بها، أم أن لبنان قاصر يحتاج إلى وصاية واللبنانيين لا يعرفون مصلحتهم وبحاجة إلى توجيهات السيدة وزيرة الخارجية المحترمة وإرشاداتها؟ ونسأل مرة ثانية هل هذه هي الديمقراطية يا عشاق الديمقراطية الأمريكية ومحبيها؟؟

ولنأتِ إلى الميزة الثانية التي تمتاز بها الدول المتقدمة، وهي الحرية.

من المتعارف عليه أن الحرية معناها أن يفعل الإنسان ما يريد، وأن يعبر عن رأيه كما يريد ضمن النظام والأخلاق ما لم يضر بحرية الآخرين

ومصالحهم. فللحرية إذن حدود، وحدود حرية كل إنسان تقف عند حدود حرية غيره من الناس. ويبدو أن هذا التعريف رجعي وغير ديمقراطي، فالحرية بنظر السادة الأمريكان هي أن تفعل ما تريد ولو على حساب حرية الآخرين وحقوقهم ومصالحهم ومعتقداتهم، وأمريكة التقدمية مثلاً حرة في أن تغزو أي بلد، وأن تغير بطائراتها على أية منطقة في أي بلد، وأن تغيّر نظام الحكم في أي بلد، وهي حرة كذلك في أن توافق على ما تريد من مقررات الأمم المتحدة وأن ترفض ما تريد من هذه المقررات، وهي حرة كذلك في أن تفرض العقوبات بحسب مصلحتها على أي بلد، وأن تشدد هذه العقوبات أو تخفضها كما تريد؛ لأنها حرة، وأن تساعد حكومة ما - ولو كانت دكتاتورية - في بلد لأنها حرة وأن (تخرب بيت) أي شعب ما وتسلط عليه حكومة تفرضها هي لأنها حرة، هي حرة في أن تفعل ما تريد وكفى!

أما في الولايات المتحدة نفسها ولمعرفة حرية الشعب الأمريكي نفسه أحيل القارئ إلى كتاب اسمه (من يجرؤ على الكلام). وهو مترجم للغة العربية واسم مؤلفه (بول فندلي). وهو ليس مسلماً وليس عربياً وليس من الصين، ولا من البلدان الرجعية المناهضة للولايات المتحدة، ولا أحد أركان القاعدة ولا أحد أفراد طالبان، ولكنه سيناتور أمريكي ابن أمريكي ابن أمريكي.

من يقرأ هذا الكتاب يعلم مدى حرية الفكر في أمريكة؛ فالأمريكي حر في أن يأكل ما يشاء، مع تفضيل الهمبرغر، وأن يشرب ما يشاء، ويفضل الكولا، وأن يتزوج من يشاء ومتى شاء وبأي شكل شاء، وأن يرقص مع من يشاء، وأن ينام كما يشاء، وأن يغتسل متى شاء وبأي صابون شاء، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عن رأيه في القضايا الكبيرة كما يشاء. والقضايا الكبيرة هي التي تمس بعض الأشخاص أو بعض

المجتمعات وهي معروفة، فإن تجرأ وتكلم كان مصيره القتل برصاصة طائشة من مجهول، أو (الدعس) بسيارة يسوقها شاب أرعن، أو التسمم بغذاء أو دواء من صديق حميم، أو الزج في سجن من السجون الراقية من فئة (سبعة نجوم) يلاقي فيه أنواع (التكريم والاحترام) التي لا تخطر على بال بشر، وتختلف طريقة التكريم ودرجته باختلاف قيمة الشخص المكرم ودرجة جرمه ومدى تأثيره. ولا يقتصر انتشار الحرية على الولايات المتحدة وحدها، بل هي منتشرة في بلاد الغرب؛ ففي فرنسة مثلاً أُمّ الحرية والداعية الأولى إليها في العالم المتمدن الحديث لا يسمح للمسلمات بارتداء الحجاب في الجامعات والمدارس، أليس هذا دليلاً (يقلع العين) على مدى الحرية في هذا البلد؟ وفي البلاد الغربية كلها مثل هذه الحريات التي تتمتع بها شعوبها لا أطيل في ضرب الأمثلة عليها.

أصبحت الحرية شعاراً من الشعارات التي تستعمل حين الحاجة إلى الضحك على السذج والبسطاء، وهي ليست حقاً لجميع البشر، وإنما هي سلعة توهب أو تباع لبعضهم حين الحاجة وتؤخذ منهم حسب الظروف، ولكي يكون الإنسان أو الشعب حراً يجب أن يكون قوياً والويل دائماً للضعفاء!!

ولننتقل الآن إلى استعراض أمور أخرى تدل على مدنية الغرب وحضارته ومثله الأعلى الولايات المتحدة الأمريكية.

- في فنادق المدن الكبيرة في الولايات المتحدة تزوّد أبواب الغرف بعين ساحرة وبرتاج متين مع تحذير من إدارة الفندق يقال فيه للنزيل: تأكد من طارق باب غرفتك عبر العين ولا تنس إحكام الرِّتاج قبل أن تنام؟!!
- يوصى سائقو السيارات العامة والخاصة بالتأكد من إحكام إغلاق أبواب السيارة حين وقوفها على شارات المرور خشية

فتحها من قبل مجهول يدخل السيارة بسرعة لسرقة أو لارتكاب جريمة؟!

- في الولايات المتحدة أكثر من مليوني طفل لا يرسلهم أهلوهم إلى المدارس، بل يعلمونهم في دورهم خوفاً عليهم! ممن؟ ومن ماذا؟

- حمل السلاح الفردي مسموح في الولايات المتحدة، ولم تُجدِ محاولات منعه بحجة الدفاع عن النفس، مع ما يحدث من حوادث القتل الجماعي الكثيرة في المدارس والمعامل والمؤسسات الرسمية، نتيجة استعمال هذا السلاح من قبل شاب سكران أو عاشق ولهان أو معتوه فلتان.

- حوادث الاحتيال وسرقة أموال الناس كثيرة لاستعمال المسروق من بطاقات صناديق النقود الآلية المنتشرة في الشوارع.

- ضرب النساء حتى كسر العظام، أو طعنهن بآلات حادة حتى الموت منتشر بنسب كبيرة تشكل مشكلة يفتش لها عن حل بما يجري من أبحاث وما يعقد من ندوات ويكتب من مقالات، ولكن دون جدوى!

- في الولايات المتحدة كذلك وفي غيرها من بلاد الغرب - بلدان الاستقامة والكرامة - السرقات الكبيرة والاحتيالات الضخمة، والفساد المستشري على مستوى رؤساء الوزارات والوزراء وكبار المديرين. وهناك التهرب من الضرائب باسم القانون وبوساطة رجال القانون، وهناك كل ما في البلاد المتأخرة من بلايا ولكن بأسلوب حضاري وديمقراطي.

وإذا ذكرت كل ما تقدم فلكي يعلم المهووسون بحضارة الغرب حقيقة

هذه الحضارة، وليس من شأننا بعد ذلك أن نقول عنها شيئاً فأمرهم لا يهمنا، وليعش الغربيون كما يشاؤون شريطة أن يبعدوا أذاهم عن غيرهم من الشعوب، أما وهم فاسدون ويمتد فسادهم إلى كل بلاد الأرض وبلادنا العربية والإسلامية في الطليعة، فلا بد إذن من دفع الأذى عنا بكل الوسائل التي تكفل سلامتنا وأمننا وكرامتنا ومعتقداتنا، إلا إذا كان هذا كله كما يرى بعضهم من بقايا الجهل والتخلف الذي لم يبق له مكان الآن في عصر التقدم والعولمة العظيمة!! ولا بد إذن من (تطنيش) تصريحات كبار المسؤولين في بلدان الغرب.. فهذا يريد محاربة الإرهاب المتمثل في الإسلام، وذاك يرى أن الإسلام خطر على الحضارة، وثالث لا يستحي من التصريح بوجوب شن حرب صليبية جديدة، ورابع وخامس.. ولا بد كذلك من الخرس والعمى والطرش أمام احتلال العراق، وتخريب أفغانستان وضرب باكستان، والاعتداء على غزة وعلى لبنان، وتهديد محور الشر المتمثل، حسب زعمهم، في سورية وإيران.. ولا بد أيضاً من نسيان ما رآه كل العالم على شاشات الأقنية الفضائية من مظاهر المدنية والحضارة في (أبو غريب) وغوانتانامو، وما سمعه الناس أكثر مما رأوا، وما حدث فعلاً أشد هولاً مما رأوا ومما سمعوا!! هل يمكن أن يصيبنا الخرس والعمى والطرش عن كل هذا ولا يصدر عنا أي ارتكاس أو ردة فعل فنقنع بالذل ونستكين إلى الهوان، وإذا قيل:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عَيْر الحي والوَتِدُ

فهل يكون العرب والمسلمون ثالث هذين الأذلين!!؟؟

من الواضح أن حضارة الغرب حضارة مادية بحتة تقاس فيها قيمة الدولة بما لديها من أسلحة وتقاس قيمة الفرد بما لديه من مال، والوسائل التي تبلغ فيها الدولة أو الفرد الغاية مباحٌ فيها الكذب والخداع والنفاق والسرقة وارتكاب كل أنواع الرذائل؛ لأن الغاية تبرر

الوسيلة. ومن الواضح كذلك أن بلادنا وعقيدتنا هما المستهدفان في كل خطط الغرب الدنيئة لما حبانا الله في هذه البلاد من ثروات ولما كرمنا به من معتقدات، وغاية كل بلاد الغرب الإبقاء على بلادنا ضعيفة ذليلة ليسهل عليها تمرير مخططاتها باستثمار ثرواتنا وهدم نفوسنا، وما بلد اليهود الذي زرعه الغرب في وسطنا إلا شوكة تخزنا بها كلما رأت منا محاولة للنهوض. وما الوعود التي يعطيها بعض حكامهم بين الحين والحين إلا تخديراً للأعصاب وتثبيطاً للهمم، وقد ظهر ذلك جلياً في دعوة الرئيس الأمريكي الجديد والتي بدأ بالتراجع عن بنودها واحدة بعد واحدة، إلا تأييده للصهاينة فقد كان واضحاً وصريحاً منذ البدء، فهل يمكن أن نصدق شيئاً بعد هذا، ونحن نرى أن كل ما تغير في الولايات المتحدة هو تسويد وجه رئيسها وتبديل لون وزيرة خارجيتها، والعالم لا يهمه لون الوزيرة سوداء كانت أم شقراء، وإنما يهمه سياسة الوزارة رشيدة هي أم حمقاء خرقاء؟!

أعود للقول إن الغاية مما ذكرت هي أن ما يعتقده بعضهم من أن تكون إحدى الدول الغربية وسيطاً بين (شعوب) الشرق الأوسط جميعها وعدوتها الأولى الدولة اليهودية المزروعة في قلبها هو وهم غير معقول وغير مقبول أصلاً؛ لأن من أبسط قواعد المنطق أن الخصم لا يمكن أن يكون وسيطاً ولا حَكَماً، والدول الغربية كلها وعلى رأسها الولايات المتحدة - الوسيط المحبب إلى قلوب بعضهم- ليست صديقة ولا حيادية، وإنما هي تجاهر بعدائها للعرب والمسلمين كلما سنحت لها مناسبة، وقد يكون ذلك بلا مناسبة بل لوجه الشيطان فحسب!.. وهؤلاء المعجبون بالغرب العظيم واللاهثون لكسب رضا الغرب الحضاري المتمدن التقدمي أحد اثنين: المعتقد بأن خطط الغرب ستنجح بأي شكل من الأشكال ويرشده ذكاؤه إلى وجوب (الصف) معه ليكون له نصيب في الغنيمة (أو

في التركة)، أو العارف بعداء الغرب للعرب والمسلمين، ولكنه لا يعترف كيلا يوصم بأنه - لا سمح الله - رجعي أو إرهابي.

لقد مرت بمنطقتنا أزمات أشد من الأزمة الحالية، وقيض الله لها من أخرجها منها سالمة غانمة، وستخرج إن شاء الله من وضعها الحالي المؤلم أقوى عزيمة وأشد تماسكاً بفضل رجال مخلصين يحسنون التخطيط ويتقنون التنفيذ.. وما ربك بغافل عما يفعل الظالمون...

٣

والعمـل؟!

البلاد العربية خاصة والبلاد الإسلامية على العموم مستهدفة من الغرب مُعتدى عليها منذ مئات السنين، ومتهمة مع ذلك بالعدوان والإرهاب، وهذا هو منطق الذئب والحمل المعروف منذ القديم. وما زال مطبقاً مع الأسف!!

لقد هُدِمت العقائد وأُفسدت الأخلاق وشُريت الضمائر، واختلطت الأمور على الناس حتى أفهمهم وأرجحهم عقلاً، واختلفت معاني الرجعية والتقدمية، وتبدلت معاني الصدق والكذب والأمانة والخيانة حتى العلم والجهل والتعصب والتسامح، وأصبح لكل كلمة تفسيران ودلالتان أو أكثر من تفسيرين ودلالتين.

ومن نعم الله وجود فئة من الناس، مع كل هذا، تزداد مع الأيام في كل البلاد العربية والإسلامية تتألم لهذا الواقع السيئ وتسعى لإنقاذ البلاد والعباد، إلا أن وسائلها ما زالت ضعيفة، وما زال التيار الجارف أقوى منها، وقوى الشر تطغى دائماً في البدء، ولكن لا بد من انكسارها في النهاية، وحوادث التاريخ ومنطق الأمور يؤكدان ذلك، ومع صعوبة الخروج من الواقع المؤلم فإن الأمر ليس مستحيلاً إذا توافرت النية الطيبة والإخلاص الصادق، والتخطيط السليم والعزيمة الأكيدة والعمل الجاد، ولكن من أين البدء وكيف؟!

من البديهي وجوب البدء بالفرد؛ فالمجتمع الصالح يتكون من أفراد أكثرهم - إن لم يكن كلهم - صالح، والفرد تصلحه البيئة ويربيه البيت ويندر أن ينشأ فرد صالح من أسرة مفككة، وبعد البيت والأسرة تأتي المدرسة ومعلموها ولا سيما في المراحل الأولى من التعليم، وهنا تبدأ المشكلة الكبيرة، ويبدأ الدوران في حلقة لا يعلم أولها من آخرها. فأين البيت الذي يربي الأولاد ويرعاهم الرعاية الصالحة؟ أين الأب وأين الأم، وأين معلمو المدارس؟ لا أطيل في هذا الموضوع فهو معلوم ويردده الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم غنيهم وفقيرهم عاقلهم وفاجرهم؛ الفنانون يتكلمون عن الأغنية الهابطة، ورجال التعليم مزعوجون من التعليم المتراجع، والتجار ورجال الأعمال يتذمرون من الاقتصاد المتدهور، ورجال القانون يشتكون من اختلال ميزان العدل، والآباء والأمهات والمربون والمربيات مقهورون من الأخلاق المعدومة، وجميع هؤلاء وغيرهم لا يتكلمون سراً بين أربعة حيطان، وإنما يفصحون عن آرائهم في الندوات والمقابلات والمحاضرات أو المقابلات في الصحف والمجلات أو على شاشات الفضائيات، ولكن هل هناك خطوات عملية لرفع الهابط وإصلاح الفاسد وتقويم المعوج؟ أرى أنه لا يسعى أحد للخروج من هذه الحلقة ولا يجرؤ أحد على البدء بالكلام. وأعتقد أنه من الضروري إعادة النظر في كل المفاهيم التي أخذناها عن الغرب وفي كل القيم التي تشبعنا بها من الغرب وفي كل البرامج التي قلدنا فيها الغرب، وثبت بالتجربة والبرهان أنها لا تؤمن مصالحنا ولا تتفق مع معتقداتنا وهي مع ذلك لم تنهض بنا كما كنا نرجو. علينا أن نعيد النظر في برامج التعليم وطرائقه في كل مراحله، علينا أن نعيد النظر في مفاهيم الحرية والديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق وحقوق، ولا سيما وأن الغرب نفسه بدأ يعيد النظر في هذا كله، علينا أن نعيد النظر في كل القوانين والقرارات

والتعليمات والتوجيهات.. لنرى ما أفاد منها وما أضر، ونرى ما يوافقنا منها وما لا يوافقنا، وأن نكون صريحين مع أنفسنا لا نغالي في المزايدات واستغلال المواقف، وألَّا ندافع عن فكرة نحن على قناعة تامة بأنها خاطئة ونستمر في الدفاع عنها لكسب رضا بعض الناس، أو بعض الجماعات في الداخل أو في الخارج. علينا أن نعيد النظر في المصادر التي نستند إليها في تشريعاتنا وأفكارنا وأعمالنا وقراراتنا، وأن نتوخى حين انتقاء هذه المصادر ما يوافقنا ويوافق وضعنا الحالي وتطلعاتنا إلى المستقبل.

يبدأ البناء - مهما كان ارتفاعه من طابقين أو من مئة طابق - بوضع الأساس، ولا يمكن بناء الطابق العشرين مثلاً قبل بناء الطابق التاسع عشر ولا بناء الطابق الأرضي قبل وضع الدعائم والأساسات، وإذا كان البناء قائماً، ولكنه متداع لسبب ما، فلا يمكن إضافة طابق فوقه أو تجميله وتزيينه قبل تدعيمه وتقويته، وإلا هدم فوق رؤوس أصحابه فخسروا البناء وما أنفقوا عليه من تجميل وتزيين وإضافات. ووضع العرب والمسلمين في دولهم ودويلاتهم في الوقت الحاضر كهذا البناء المتداعي الذي يجب أن يدعّم ويقوّى قبل أن تضاف إليه طوابق جديدة أو يزين ويبهرج، ومن المؤسف أننا في الوقت الحاضر نسعى للتزيين والإضافات قبل أن نعنى بالدعائم والأساسات، نسعى إلى امتلاك أحدث التقنيات في حياتنا العامة والخاصة، والسوس ينخر في مؤسساتنا وبيوتنا وجسومنا، نسعى وراء المظاهر والقشور ونهمل اللباب والجذور. وللخروج من هذا الواقع وبناء وطن عربي قوي ومجتمع إسلامي متماسك لابد من وضع خطة للتدعيم والتقوية، وأعتقد أن من حقي بصفتي مواطناً عادياً في هذا الوطن الإدلاء ببعض الآراء في هذا الشأن أرى أنها مفيدة أو على الأقل أنها تصلح للمناقشة:

العودة إلى الدين

١- عرف العلماء الإنسان تعاريف مختلفة، فقالوا: إنه حيوان ناطق، وقالوا: إنه حيوان ضاحك، أو حيوان قائم (أي يمشي على اثنتين)، أو حيوان عاقل، كما قالوا: إنه حيوان متدين. وإذا كانت كل هذه التعاريف صحيحة فإن الأخير منها أصحها، وأقواها ارتباطاً بحياة الإنسان، منذ كان إنساناً بدائياً وحتى يوم الناس هذا. ومع تطور العبادات من عبادة الشمس والقمر والكواكب إلى عبادة مظاهر الطبيعة من عواصف ورياح ورعد وبرق، أو مظاهر الشعور الإنساني من حب وبغض وخير وشر، إلى عبادة الأصنام والآلهة التي تمثلها، مع نزول الأديان السماوية حتى انتهت بالدين الإسلامي الذي أكمله الله وأنزله على خاتم النبيين محمد عليه السلام.

مع كل هذه التطورات نجد أن العقيدة تؤثر في معتقدها تأثيراً عميقاً يغلب كل شيء آخر في حياته؛ لأن العقيدة، ترتبط دائماً بقوة خارقة خارجة عن الإنسان يؤمن بجبروتها وقدرتها على فعل كل شيء، فهو لذلك يسعى إلى إرضائها ويخشى غضبها، في حين يرى أن أي نظام يضعه البشر يبقى نظاماً ناقصاً يمكن تجاوزه دون خشية أو رهبة، ولا سيما أنه نظام غير ثابت يتغير بتغير واضعه أو من قبل واضعيه أنفسهم كما يتغير بتغير الزمان والمكان، عدا أن واضعيه أنفسهم قد لا يستطيعون تطبيقه أو أنهم هم أنفسهم الذين يخالفونه قبل غيرهم!! فليس لذلك لأي نظام وضعه البشر في أي زمان وفي أي مكان قوة زاجرة كالعقيدة الدينية مهما كان نوعها...

٢- يقول بعضهم: إن الأنظمة الحازمة والقوانين الصارمة والمراقبة الدائمة تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض، وتمنع تجاوزاتهم ولا علاقة للدين والتدين بذلك. وليس هذا صحيحاً إطلاقاً، وثمة أمثلة كثيرة على ذلك:

أول مثل ما جرى في نيويورك منذ بضع سنوات حين انقطع التيار الكهربائي بعض الوقت في المدينة، وضجت وسائل الإعلام المختلفة آنذاك بذكر ما جرى في هذه المدة القصيرة من فضائح، وما جرى من تجاوزات واعتداءات، فأين فِعْل النظام وأثر النظام والقانون وتأثير القانون؟

والمثل الثاني شاهدناه في دمشق رأي العين في أثناء الحرب العالمية الثانية حين احتل الجيش الإنكليزي دمشق لتحرير سورية من حكومة فيشي؟؟! وكانت الفرقة الإنكليزية التي دخلت مؤلفة في أغلبيتها من الجنود الأستراليين. وبعد بضعة أيام من استتباب الأمن كان الجنود الأستراليون الذين يرغبون في دخول دور السينما يصطفون لعمل الذنب (الكيو) أمام نافذة البطاقات للحصول عليها لأنهم هكذا تعلموا وهكذا يعملون في بلدهم بحسب النظام، ولكن بعد بضعة أيام نسوا النظام وأصبحوا يزاحمون الناس. وبدلاً من أن يفرضوا النظام على غيرهم غرقوا في الفوضى.

والمثال الثالث ما جرى في سجون (أبو غريب) وغوانتانامو وغيرها، لا يمكن أن يصدقها الإنسان لو لم يشاهدها في كل وسائل الإعلام، فهل كان مرتكبو هذه الجرائم بشراً متمدنين يحكمهم النظام وتربيهم القوانين ورجالاً متحضرين ونساء متحضرات أم ما شوهد كان من فعل وحوش الغابات؟! وأين الحضارة التي تتمثل في هؤلاء المجرمين وهؤلاء المجرمات؟؟

الدين يمنع الإنسان من الخطأ، لا لأن هناك عيناً تراقبه، ولكن لأن هناك ضميراً يحاسبه وعقيدة تكبح جماحه وتدله دائماً على الخير ليعمله والشر ليتجنبه، فالمؤمن الذي يتأخر عن الصلاة يشعر وكأن كابوساً يزعجه حتى يصلي، وهو شعور داخلي وليس خوفاً من إنسان يراقبه

ويحاسبه، لقد انقطعت المطالبة بالزكاة منذ مئات السنين وليس هناك في أي بلد مسلم كما أعتقد حكومة تجبي الزكاة كما شرعت، ومع ذلك ترى معظم الناس المكلفين شرعاً بالزكاة حريصين على أدائها، وهم متشددون في حسابها ليؤدوها كاملة غير منقوصة مع عدم وجود من يحاسبهم عليها إلا عقيدتهم، ففعل الخير إذن يكون لأنه خير والإحجام عن فعل الشر يكون لأنه شر لا لأن هناك من يراقب ويحاسب في الحالين. وهذا ما رأيناه في بعض قصص هذا الكتاب.

٣- كل الأديان على اختلاف أزمنتها وأمكنتها متفقة على مبادئ أساسية يسعد البشر باتباعها ويشقون بالابتعاد عنها أو مخالفتها، فكل الأديان تحرم الكذب والسرقة والزنى والغش والقتل.. وكل الأديان تدعو إلى الإخاء بين بني البشر وإلى المحبة والسلام والأمانة وحسن التعامل.. والمتدينون حقاً يكونون خيرين حتماً بدافع داخلي لا خوفاً من حسيب أو رقيب.

٤- أريد أن أخلص مما ذكرت إلى ما يلي:

لما كانت الديانات السماوية كلها تحض على فعل الخير وتنهى عن فعل الشر، ولما كان تأثير العقيدة نابعاً من النفس، وهو لذلك أقوى تأثيراً من النظام الذي يطبق خوفاً من واضع النظام، وهو في الغالب ضعيف للأسباب التي ذكرتها قبل قليل، فإنه من المنطقي إذن للوصول إلى مجتمع صالح العودة إلى الدين لتهذيب النفوس ونشر الفضيلة والرقي بالمجتمع، وتهذيب النفوس هو الخطوة الأولى في إصلاح المجتمع، ورحم الله القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن المفيد جداً كما أرى إعادة النظر في برامج التعليم ولاسيما مرحلة التعليم الثانوي؛ أي في سن المراهقة، وإعطاء دروس

الدين المقام الذي تستحقه، وجعل مادة الديانة مادة أساسية كغيرها من المواد (حتى إني أرى أنها أكبر شأناً من بعض المواد الأخرى)، وأن تكون في الفحوص الختامية (الكفاءة والبكالوريا) مرسبة كغيرها لا أن تحذف علامتها من المجموع!!

ولكن تدريس هذه المادة يجب ألَّا يقتصر على تعليم العبادات وكيفية إجرائها، فهذا من المفروض أن يتم في المرحلة الأساسية، وإنما يجب أن تشمل دروس الدين الحكمة من العبادات، والتفسير الجيد لتعاليم الديانات، والبحث في التطبيقات العملية لكل أوامر الدين ونواهيه وتأثير ذلك في الحياة اليومية للناس وفائدته في تكوين أجيال متجانسة واعية.

فالدين ليس مجرد عبادات، وإنما هو كذلك منظم للحياة موجه للخير معلم للمثل العليا، الدين يدعو إلى استعمال العقل والمنطق وتحري الدقة في القول والعمل، الدين يدعو إلى إقامة العدل وتحقيق المساواة، الدين يعلم طريقة التعامل اليومية بين الناس لتكون علاقاتهم قائمة على المودة والنظام والتعاون ومعرفة الحقوق والواجبات، الدين يعلم النظافة نظافة الجسم والعقل والروح، الدين يعلم التكافل الاجتماعي وإعانة الفقراء وإغاثة المحتاجين واحترام الكبير والعناية بالصغير، وإقامة أسر متماسكة وجماعات متحابة متعاونة، الدين يعلم العناية بالبيئة وعدم تلويثها بأي شكل من الملوثات. الدين يدعو إلى احترام المرأة والشيخ والطفل والعاجز والمريض. أليس هذا كله مما تحتاجه كل المجتمعات وبخاصّة مجتمعنا في وقتنا الحاضر؟ ومن البديهي أن تدرّس الديانتان الإسلامية والمسيحية بحسب الطلاب. وأرى من المفيد كذلك تدريس كل من الطلاب المسلمين والمسيحيين بعض المبادئ الأساسية للدين الآخر مما يحقق زيادة التقارب بين المواطنين، وهو ما يسمونه الآن حوار الديانات، وهو أمر جيد جداً وبخاصّة في بلدنا حيث يعيش المسلمون

والمسيحيون منذ مئات السنين بألفة تامة وتفاهم صريح، ولم تعرف بلدنا النعرات الطائفية والدينية إلا حين أثار الغرب هذه النعرات لغايات دنيئة لم تخف على أحد، ولن تخفى على أحد.

إذا تحقق المجتمع الصالح الواعي المتجانس تحققت مقولة (الدين لله والوطن للجميع) عفوياً، وسهل عندئذ تضافر الجهود للنهوض بالمجتمع في مرافقه كافة على أسس سليمة مدروسة بإخلاص وعقل ومنفذة بدأب وجد.

معرفة الصديق والعدو

من أكبر الأخطاء التي ترتكبها الدول العربية الإسلامية تقصيرها في تحديد أعدائها وأصدقائها، ولا أستطيع أن أقول: إن سبب ذلك الجهل أو الغباء، ففي كل هذه البلاد والحمد لله شخصيات فذة وعقول ناضجة وأفكار منيرة، وهناك فطاحل في السياسة وعظماء في القانون.. لا يمكن أن يخفى على صغارهم مثل هذا الخطأ فكيف على كبارهم؟! وإذا لم يكن الجهل أو الغباء هو السبب فأين يكون السبب إذن؟ سؤال جوابه عند كل عربي وكل مسلم لا علاقة له بالحكم والحكام، ولا شأن له في إبداء الرأي ولا في صنع القرار، وهو جواب مخجل معروف دون أن يقال وصريح دون أن يشهر.

إن مشاكل العرب والمسلمين كثيرة ولكن المشكلة الكبيرة التي تؤرق بالهم جميعاً هي مشكلة فلسطين وهذه الدولة الغربية التي زرعت في فلسطين قلب البلاد العربية ومقر أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وما زالت مشكلتها تشغل المحافل الدولية منذ وعد بلفور السافل وحتى يومنا هذا، دون أن يجد لها العالم حلاً ولن يجد لها حلاً كما يبدو؛ لأنها اخترعت في الأصل لتبقى مصدر قلق مدى الدهر، ولتبقى أيدي

الدول الكبرى مطلقة للعب في هذه المنطقة؛ منطقة الشرق الأوسط لتسيير مصالحها الاستعمارية فيها.

ومن أغرب المفارقات أن حل مشكلة فلسطين أوكل إلى وساطة دولية تحولت بقدرة قادر إلى وساطة أمريكية فحسب، ومن المعروف أن حكام الولايات المتحدة منذ ما قبل تكليفها بالوساطة وحتى الآن يصرحون جهاراً نهاراً وبكل وقاحة أنهم مؤيدون لإسرائيل ويصفون العرب بالإرهابيين، فكيف يكون الوسيط منحازاً إلى أحد الطرفين ويبقى اسمه وسيطاً؟! ومع ذلك فكثير من العرب يسمون الولايات المتحدة دولة صديقة، وما زالوا يلهثون وراء كسب رضاها والحصول على بركاتها كلما لعنها اللاعنون وغفل عن لعنها الغافلون! فهل هناك من يرى في هذا الموقف ذرة من منطق إلا أن يكون أحد شخصين: مسرح قبل الشفاء من أحد مستشفيات الأمراض العقلية أو خريج متفوق بامتياز في إحدى كليات العمالة!؟

وكذا القول في كثير من الدول الصديقة الأخرى التي لا تتورع أن تقول في كثير من المناسبات: إن هناك صداقة وروابط تاريخية معها، وإن هناك مصالح وطنية تربطنا وتاريخاً مشتركاً يجمعنا، مع أن هذه الدول كانت استعمرت كثيراً من الدول العربية أو الإسلامية وأذاقت أهلها صنوف الذل والهوان، فهل هذه هي الروابط التاريخية التي جعلتنا نسعى إلى كسب صداقتها؟!

يقولون ليس هناك صديق دائم ولا عدو دائم، وإنما هناك مصلحة دائمة، وإذا قبلنا هذا المبدأ ونسينا الماضي كله، على مضض، فمن الواجب أن تبنى صداقتنا أو عداواتنا للدول والشعوب على مدى التزام حكومات هذه الدول وهذه الشعوب بتأييدها للمطالب العربية الحقة أو عدم التزامها بذلك، لا على أي شيء سواه، ويجب أن لا ننسى أبداً

ما فعلته كثير من الدول، وما زالت تفعل، في العرب والمسلمين، وأن نعلم أبناءنا كيف يكرهون هذه الدول ما دامت تؤيد أعداءنا وما دام هؤلاء الأعداء يعيثون فساداً في بلدنا، أوليس من المعيب والمخجل والمزري أن نساعد اليهود ضد المسلمين ونقف في صف اليهود ضد العرب؟!

أكرر ما قلت وأشدد عليه بأن من الواجب تعليم أبنائنا كيف يكرهون اليهود ومن يواليهم ومن يشد أزرهم، وأن نزرع في نفوس الأجيال القادمة وعقولهم وضمائرهم وجوب التخلص منهم بالثمن الذي يتطلبه ذلك مهما كان باهظاً.

التسامح جميل وجيد في حدود المنطق والعقل وضمن حفظ الكرامة وصيانة الشرف، أما إن تعدى ذلك فقد أصبح سذاجة تصل إلى حد الغباء، وما أظن أحداً يرضى لنفسه هذه الصفة.

الانفتاح على العالم

أستعير هذا الاصطلاح الذي كثر استعماله في زمننا هذا، ولكن لغير ما يستعمله الناس له، فهم يقصدون به أخذ ما في الغرب وتطبيقه عندنا، ومسايرة الغرب، والسير في ركاب الغرب، وباختصار كما يقولون (تقبل الغرب) لأنه في نظرهم المثل الأعلى وكل ما يعمله الغربي جيد وكل ما يقوله عظيم. لهم شأنهم، وما هذا أريد بكلامي، وإنما أريد بالانفتاح على العالم إفهام هذا العالم خطأه في نظرته إلى الشرق وأهل الشرق، وخطأه في تعامله مع المسلمين وبخاصّة العرب، وخطأه في الأساس في فهمه للإسلام، أريد بالانفتاح تحقيق ما يلي:

أولاً- كشف النقاب لشعوب الغرب وقادته على السواء أنهم جميعاً واقعون في شبك الصهيونية الخادعة ومخططاتها المخربة، التي لا تتورع

عن تدمير أعز أصدقائها وأكابر مناصريها في أي زمان وفي أي مكان إذا رأت في ذلك مصلحتها.

ثانياً- كشف حقيقة الصهاينة وقذارة أساليبهم في التعامل مع كل الناس واعتمادهم دائماً على الغش والخداع والكذب والخيانة والرياء.. والسعي إلى تملصهم من كل اتفاق أبرموه أو وعد قطعوه إذا وجدوا في ذلك مصلحتهم، وإنهم مخاتلون في إدعائهم السعي إلى إقامة سلام مع دول الجوار؟. لو أنهم يريدون السلام حقاً لقدموا له بما يدل على حسن نياتهم، لا بتصعيد اعتداءاتهم واستمرارهم في بناء المستعمرات وتهجير السكان وهدم البيوت، لو كانوا يريدون السلام حقاً لتخلوا عن تصاريحهم النارية ومطالبهم التعسفية وممارساتهم اللا أخلاقية واللا إنسانية. إنهم لا يريدون السلام لأن السلام ليس من مصلحتهم وإنما يلوحون به بين الحين والحين تخديراً للأعصاب وإسكاتاً لبعض من ينتقدهم في الشرق والغرب، وليظهروا أنفسهم بمظهر الحمل الوديع المسكين ويظهروا العرب بموضع المتعنت المتعصب. هذا ما يجب أن يعلمه علم اليقين - قبل الغربيين - بعض (الأصدقاء) وبعض (الأشقاء)، فلا يمعنوا في حماستهم لإقامة علاقات مع الدولة اليهودية مهما كان نوعها ومهما كانت درجتها؛ لأن (أول الغيث قطر ثم ينهمر).

ثالثاً- التعريف بحقيقة الإسلام ومبادئه، وتغيير الفكرة الخاطئة التي يحملها الكثيرون بسبب جهلهم من جهة، وبسبب الدعايات الكبيرة التي بثتها الصهيونية بأساليبها الماكرة من جهة ثانية، ولتقصير المسلمين أنفسهم في كثير من الحالات في التعريف بحقيقة دينهم.

رابعاً- ليس الإسلام دين إرهاب، ولا المسلمون إرهابيين، ولا العرب كذلك إرهابيين، وهل هاجم المسلمون أو العرب دولة غربية

واحتلوا أراضيها وقتلوا أبناءها ودمروا مؤسساتها، أم العكس هو الصحيح؟ فالدول الغربية هي التي ما زالت منذ مئات السنين تهاجم الدول الإسلامية والعربية وتحتلها باسم الانتداب أو الوصاية أو الاستعمار السافر أو الحماية أو وضع القواعد العسكرية أو الدفاع عن المصالح المشتركة.. وإذا قام بعض المسلمين أو العرب بالدفاع عن بلدهم وأهلها وعقيدتهم فليس هذا إرهاباً بل هو حق مشروع لهم أقرته كل المؤسسات الغربية نفسها، وقد قامت به جماعات مشابهة في دول كثيرة مثل إيرلندة وجنوب إفريقية، وما زالت تقوم به جماعات أخرى في كثير من بلاد العالم دون أن تتهم بأنها إرهابية!

خامساً- إن الحكم على الدين الإسلامي استناداً إلى ممارسات بعض المسلمين الخاطئة أمر غير صحيح وغير مقبول، وإذا أخذت على بعض المسلمين بعض الأخطاء وعزيت إلى الإسلام فإن ذلك يجب أن يطبق على كل الديانات الأخرى وكل أنظمة العالم الأخرى المتبعة في مشارق الأرض ومغاربها، وأين هي النظم أو الديانات التي لا يخالفها بعض أتباعها لدرجة تسيء إليها إساءات بالغة؟

سادساً- إن ما تفعله الولايات المتحدة اليوم سبق أن فعلته دول أوربية في القرنين الماضيين، وسبق أن أخفقت في مخططاتها واضطرت بشكل أو بآخر إلى تغيير سياساتها والاعتراف بحقوق كل الدول التي كانت تحت سيطرتها والانسحاب منها عسكرياً على الأقل، وإن كانت خرجت من الباب لتدخل من النافذة بقناع جديد وأسلوب جديد، والسبب في ذلك تخاذل حكام هذه الدول أو تآمرهم أو جهلهم، فجاءت الولايات المتحدة الآن لتعيد الكرة وتعيد التجربة ذاتها، وستضطر كما اضطر غيرها من قبل إلى الخروج كما دخلت، والغريب في الأمر أن الولايات المتحدة نفسها هي التي كانت وراء إعلان حقوق الإنسان ومحاربة الاستعمار وحق

الشعوب في تقرير مصيرها، ثم جاءت لتناقض نفسها وتخالف مبادئها بتحريض من الصهيونية وعملائها.

سابعاً- إن مصلحة الولايات المتحدة وكل دول الغرب كسب صداقة العرب والمسلمين والأخذ بيدهم، وهم أكثر من مليار نسمة لديهم من الموارد الطبيعية والثروات المختلفة الشيء الكثير، فيستطيعون بذلك الحصول عليها بدون عناء ولا حرب ولا قتال ولا مؤامرات، بل بالرضا وبما يوافق مصلحة الطرفين، في حين ليس عند اليهود شيء بل هم قلة لا تملك إلا النهب والنصب والاحتيال وحياكة المؤامرات، إن الولايات المتحدة ومن سبقها في خططها الاستعمارية وحروبها التي تشعلها هنا وهناك تنفق الكثير من الأموال وتفقد الكثير من أبنائها، وتعرض مصالحها للخطر وسمعتها للإساءة، ولو أنها صادقت المسلمين والعرب لحصلت على كل ما تريد بالرضا وبثمن أقل بكثير مما تنفقه الآن، ولكنها النفوس الشريرة والمؤامرات اليهودية الحقيرة التي لا يهدأ لها بال إلا بإيقاد نار الفتن وإشاعة الدمار والخراب في العالم.

ثامناً- إفهام العالم حقيقة القضية الفلسطينية، وهي أهم قضية تخص العرب والمسلمين جميعاً، ولا تقتصر أهميتها على الفلسطينيين أنفسهم فحسب كما يحاول أن يصورها الصهاينة، وكما يفهمها مع الأسف بعض المتآمرين المتصهينين، فلسطين قلب البلاد العربية والقدس لها مقامها في العقيدة الإسلامية وفي التاريخ العربي، والفلسطينيون عرب - مسلمون أو مسيحيون في ذلك سواء - أهلنا وقومنا ما يصيبهم يصيب جميع العرب وما يجرحهم يؤلم كل العرب، وليس من الأخلاق ولا من الدين ولا من المنطق التخلي عن القضية الفلسطينية، ويجب أن يفهم العالم كله أن الدولة اليهودية التي زرعت في قلب البلاد العربية دولة غير شرعية في أساسها، وقامت بوعد من بلفور وزير خارجية دولة مستعمرة مسيطرة

آنذاك، وكما يقول المثل الدمشقي (شي لله يا بلفور)، ومن أعطى هذا اليهودي الحق بالتبرع بإنشاء دولة مهما كانت؟ وهل كانت فلسطين ملك أبيه فورثها عنه وجاد بها على المستحقين من أبناء جلدته، ولماذا لم يقتطع لهم جزءاً من الجزر البريطانية نفسها أو من أي دولة أخرى؟ وكيف يسوغ لهيئة الأمم المتحدة أو لأي دولة أو مؤسسة مهما كان شأنها اقتطاع جزء من وطن ما، وإعطاؤه لمجموعة من شذاذ الآفاق دخلوا بلداً غريباً عنهم بالاحتيال والرشوة والسرقة وإفساد الأخلاق وشراء الضمائر، وعاثت عصاباتهم فيها فساداً فكافأتهم الأمم المتحدة بتقديم فلسطين لإنشاء دولة لهم عليها، وليتهم اكتفوا بذلك، بل أصبحوا خلايا سرطانية تنهش في البلاد العربية، وتؤلب على العرب دول الغرب، وصدقوا أنفسهم وصدقهم العالم - وبعض العرب مع الأسف - أن الأرض أصبحت أرضهم والوطن أصبح وطنهم، وأصبحوا لا يستحون من الجهر بمطالبهم وفرض رغباتهم، ساعدتهم في ذلك بعض الدول الغربية التي لها غاياتها في إضعاف العرب والمسلمين، ومن المؤسف أن ساعدهم كذلك بعض العرب الجهلة المنافقين المتآمرين الخالين من أي قيمة أخلاقية أو إنسانية.

تاسعاً- كثرت في الآونة الأخيرة الدعايات في كل مكان لمؤسسات محلية وإقليمية تقيم مؤتمرات ودورات تدريبية أو ورشات عمل، ولمعاهد تعليمية أو أكاديمية تطويرية... وغير هذا من أسماء تتعلق بمواضيع مختلفة إدارية واقتصادية وتعليمية ومعلوماتية، وبأمور كثيرة تمس نقاطاً حساسة في المجتمع، ومع كل ما يبدو من براءة هذه المؤسسات والمؤتمرات والدورات، فإنني أرى الانتباه لما يمكن أن يدس في دسمها من سم، ولا سيما حين نجد في المشرفين عليها أو المشاركين في بعضها مؤسسات أو هيئات أو إدارات لا يمكن الثقة ببراءتها، وبالأخص حين

يكون بينها ما هو قادم من الولايات المتحدة أو شريكاتها من الدول المعروفة بعدائها للعرب والمسلمين.

عاشراً- في الانفتاح على العالم يجب أن يتصدى كل إنسان عربي أو مسلم وكل مؤسسة وكل حكومة لمتابعة ما يبثه اليهود من أكاذيب وما يحيكون من مؤامرات، وتصحيح أكاذيبهم وفضح مؤامراتهم ومقاومتها بكل الطرق المشروعة المتاحة كيلا تترك للصهيونية ثغرة تحقق منها مآربها.

هذا ما أعنيه بوجوب الانفتاح على العالم، لا ما يعنيه بعض التقدميين ويقولون به وهو (قبول الآخر)؟! نحن نقبل الآخر الذي يقبلنا ويحترمنا، نقبل الآخر الذي لا يحتل أرضنا ويقتل أبناءنا وينهب ثرواتنا ويشوه تاريخنا ويهدد مستقبلنا.

إن الانفتاح على العالم من وجهة النظر التي ذكرتها فرض عين على كل عربي وكل مسلم؛ فكل مسلم مسؤول أمام الله عن الجهاد في سبيل الله وهذا نوع من أنواع الجهاد دون شك.

هناك أفراد ناشطون في هذا المجال لا يقصرون في كتابة المقالات أو الكتب، وهناك دعاة وأعوان لا يقصرون في نشر الحقائق وتوجيه الناس وإرشادهم، وهناك محطات فضائية تعمل ليلاً نهاراً للقيام بهذا الواجب بأساليب وطرائق متنوعة، وكل هؤلاء مشكورون مجزيون بإذن الله الجزاء الحسن، ولكن أرى من واجب كل فرد، ولاسيما الذين يعيشون في ديار الغرب، القيام بعمل يفيد قضية العرب والمسلمين، أقله التحدث مع أصدقائهم وزملائهم ورفاقهم، ولاسيما من الغربيين، بالحقائق، وفضح دسائس اليهود والتبشير بحق العرب والمسلمين في الدفاع عن قضاياهم دون أن يتهموا بالإرهاب!! كما أن من واجب كل جالية مسلمة في بلد غربي وكل سفير وكل قنصل وكل موظف في سفارات أو قنصليات

الدول العربية والإسلامية أن يكون داعية لقضيته وقضية وطنه، ونحن نرى ما يعمله الصهاينة في هذا المجال وكيف يؤثرون في شعوب العالم، ويصورون لهم أنهم مظلومون مساكين مقهورون على أمرهم، وكيف يصورون العرب والمسلمين أنهم ظلمة إرهابيون معتدون، وكيف يقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً مع أنهم دعاة باطل، ونحن أصحاب الحق، ولكنهم ناشطون ونحن متقاعسون، متنبهون ونحن غافلون، عاملون ونحن كسالى نائمون!!.

امتلاك القوة

لا أقصد بالقوة القوة العسكرية فقط بما فيها قوة الردع والدفاع، فهي وإن كانت على رأس القوى إلا أنها ليست كل شيء، ويجب أن ترافقها أنواع أخرى من القوة وهي كثيرة، يأتي في طليعتها قوة الإيمان والعقيدة وقوة الأخلاق، ثم إن العلم قوة والاقتصاد قوة والإعلام قوة والفن قوة، ولكل هذه القوى قيمتها وتأثيرها إذا أحسن استعمالها وتوجيهها حين الحاجة إليها.

إن الشعب الضعيف تسلب حقوقه ولا تعاد الحقوق بالاستجداء والرجاء وإنما بالكفاح والجهاد، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، ومن واجبات المسلمين المفروضة أن يكونوا أقوياء ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

ولكن قوة السلاح لا تكفي وحدها، بل يجب أن ترافقها قوة العقيدة والإيمان بالدرجة الأولى، وقد رأينا شأن هذا واضحاً في حرب لبنان وحرب غزة؛ فالمؤمن بقضيته يتحمل الأذى ويتحمل القتل والتدمير والجوع والتشرد ويكافح بقوة أكبر لأنه يعتقد أنه يدافع عن حق - في حين

يدافع خصمه عن باطل، ويخاف دائماً أن لا يكون النصر حليفه - لذلك يأمل أخيراً في النصر ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٤].

وكذلك القول في قوة الأخلاق، فشعب لا أخلاق له يباع ويشترى، ويكثر فيه الخونة والعملاء والمخربون.

والإعلام من أكثر القوى شأناً في هذه الأيام، وقد أتقن أعداء العرب والإسلام استعمال هذه القوة فيما لا يزال العرب والمسلمون غافلين عن ذلك. إن أعداءنا مع أنهم على باطل لا يفتؤون يرددون الأكاذيب بأشكال مختلفة وأساليب متنوعة، ويشوهون الحقائق ويقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً، ويكررون ما يقولون حتى يصدق العالم أكاذيبهم ولاسيما حين لا يرون رداً مقنعاً منا، في حين يملي الواجب على كل عربي شريف، وعلى كل مسلم صادق، وعلى كل مؤسسة وكل حكومة أن تعنى بموضوع الإعلام بكل الوسائل لإيصال الفكرة الصحيحة عن حقيقة الإسلام والمعلومة الصحيحة عن حق العرب، ولتفنيد ادعاءات الصهاينة ومن لف لفهم، وإذا كان من الصعب قيام الحكومات بهذه المهمة فلتقم بها مؤسسات خاصة وقد يكون هذا أفضل وأجدى.

والاقتصاد قوة يمكن اختصار شأنها في قول أحد الزعماء المشهورين: ويل لأمة تلبس مما لا تصنع وتأكل مما لا تزرع. والبلاد الإسلامية والعربية كلها بلاد غنية بثرواتها المتنوعة البشرية والمعدنية والمائية وغيرها.. ولكنها مع الأسف إما أنها غير مستغلة أو يستغلها مستعمرو الأمم وسارقو الثروات.

والقوة التي يجب أن تسيِّر كل القوى الأخرى هي قوة العلم، فكل عمل وكل خطوة في كل مجال يجب أن تكون مدروسة بشكل علمي دقيق

لا مجال فيه للفوضى والارتجال والعشوائية، ولا تبتغى فيه إلا المصلحة العامة بعيداً عن المصالح الشخصية.

يجب أن يكون هناك تنسيق علمي مدروس للنهوض بالأفراد والشعوب العربية والإسلامية، لدرجة يعلم معها أنه لا سبيل لخلاصها مما هي فيه من واقع سيئ إلا بالاتحاد، وعلى الأقل بتعاونها وتوحيد أهدافها ورسم سياساتها على اختلاف أنواعها.

أليس من الغريب والعجيب بل من المدهش المعيب أن نرى اتحاد دول وشعوب مختلفة اللغات مختلفة الأعراق مختلفة المعتقدات، ولا نرى اتحاد دول ذات لسان واحد وأصل واحد وواقع واحد وآمال واحدة؟!

قد يتوهم بعضهم أن هذا بعيد المنال، ولكن قراءة التاريخ تبين أن الشعوب التي سبقتنا في النهضة لم تكن في حال أفضل من حالنا ولا كانت شعوبها أفضل من شعوبنا، ولكن قيَّض الله لها من نهض بها ووحد كلمتها فارتفع شأنها، ونحن العرب على اختلاف أديياننا والمسلمين على اختلاف بلداننا لدينا ماضٍ زاهر يساعد في تحقيق مستقبل مجيد إن عقدنا النية وشددنا العزم. فهل من يقود إلى هذه الغايات؟!

٤

الدولة اليهودية ليست معجزة!!

لا أريد أن أتكلم عن نشأة الدولة اليهودية، والمؤامرات التي حيكت لإقامتها حينذاك سواء في الغرب أم في بعض البلاد العربية، فهي أمور معروفة، ولكن ما أريد قوله هو إن هذه الدولة حين نشأت حاولت أن تظهر قوتها منذ البدء، فقامت على مراحل بسلسلة من الحروب العلنية الكبيرة على الدول العربية المجاورة، وبسلسلة من الغارات والمذابح في أرض فلسطين نفسها، وكان قصدها من ذلك إلقاء الرعب في نفوس العرب ونشر فكرة الدولة القوية ذات الجيش الذي لا يقهر، ومن المؤسف أنها نجحت في ذلك إلى حد كبير حتى أصيب العرب بالإحباط، وسادت فكرة قدرة اليهود على إنشاء دولة إسرائيل الكبرى التي يحلمون بها من الفرات إلى النيل.

ولكن بعد حرب تشرين تبين أن الجيش اليهودي يمكن أن يقهر، ومما لا شك فيه منذ البدء وحتى الآن وفي المستقبل أن الجيش اليهودي لولا الدعم القوي والمستمر الذي يأتيه، والجسور الجوية التي تقام في كل مرة لتنقل إليه الأسلحة والعتاد والمال والذخائر دون حساب لما استطاع الصمود، ولن يستطيع ذلك أمام الجيوش العربية لو تحققت الإرادة وخلصت النيات وتضافرت الجهود.

وكان من جراء الاعتداءات المتكررة التي قام بها اليهود في فلسطين نفسها أن حدثت الانتفاضة الأولى ثم الثانية، بدأت بأطفال الحجارة واشتد ساعدها تدريجياً بتشكيل فرق المقاومة المختلفة التي أصبح لها من القوة في الوسط الفلسطيني وفي خارج فلسطين ما هو معروف، واستطاعت على ضعفها إيقاع خسائر كبيرة وضربات موجعة باليهود ومصالحهم المختلفة.

ثم جاءت حرب لبنان التي أراد منها اليهود استرداد هيبتهم، والقضاء على المقاومة اللبنانية التي كانت أخرجتهم من جنوب لبنان قبل بضع سنوات، والخلاص من قوة مزعجة في خاصرتهم. وكانت النتيجة المعروفة التي عصفت برجال الجيش اليهودي وزعزعت كيان حكومة اليهود المتداعية، وجربت حكومتهم نفسها بعد أقل من سنتين استعادة شيء من كرامتها فشنت حرباً أقل ما يقال فيها أنها بربرية همجية وحشية للخلاص من المقاومة الفلسطينية التي تقض مضجعها، وكان حظها في هذه الحرب أسوأ وأبشع من حظها في سابقتها؛ فقد مرغت أنفها في التراب، ولم تستطع النيل من المقاومة التي بقيت صامدة مع كل ما تكالب عليها من قوى البغي الخارجية وقوى الخيانة والغدر الداخلية، وثبت بالبرهان القاطع أن كل وحشية اليهود ومن ورائهم من يمدهم لم تستطع - وهي حتماً لن تستطيع - التغلب على شعب ضعيف شبه أعزل، ولكنه مستعد للصمود وللتضحيات بما يحمله من إيمان قوي بحقه في الحياة الكريمة، وهو أمر يستحق هذه التضحيات وما هو أكثر منها.

وهكذا تبين للعالم أجمع - بمن فيهم الأقرباء المتخاذلون - أن (البعبع) الذي كان يخيف العرب ويحسبون له ألف حساب ليس إلا فزَّاعة جوفاء ضخمتها الدعايات الصهيونية من جهة وتخاذل بعض العرب والمسلمين واستكانتهم من جهة أخرى.

وأمر آخر تجدر الإشارة إليه وهو أن اليهود حين احتلوا فلسطين كانوا يطمحون إلى توسيع رقعة أراضيهم وتحقيق حلمهم الكبير: الدولة اليهودية من الفرات إلى النيل. وهم مع محاولاتهم الكثيرة لم يستطيعوا تحقيق هذا الحلم، وبعد أن احتلوا مساحات واسعة من البلدان المجاورة اضطروا إلى النزوح عن كثير منها نتيجة مفاوضات أحياناً ورغم أنفهم أحياناً أخرى، وسيضطرون عاجلاً أو آجلاً إلى النزوح عن باقي الأراضي التي ما زالت محتلة، وهكذا تحطم حلمهم. وليس هذا فحسب، بل إنهم اضطروا إلى سجن أنفسهم بسور بنوه حول دولتهم المسخ، وهل هناك دولة في العالم فعلت أو تفعل ما يفعلون!!

وأكثر من هذا إن حياتهم ضمن هذا السور الذي بنوه حياة قلقة غير مستقرة على حال، وهم في تحفز مستمر ورعب دائم مما يتهددهم من انتفاضات تكلفهم الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال، عدا سوء السمعة وكره الشعوب، ولا سيما بعدما فعلوه في حروبهم الأخيرة من وحشية شهد بها أصدقاؤهم قبل أعدائهم.

واليهود ليسوا - كما يحسب بعضهم - أقوياء متماسكين، بل هم على العكس من ذلك تماماً، فهم من قوميات متفرقة عقائدهم الدينية مختلفة يؤلفون أحزاباً متنافرة، قد يقول قائل: إنهم مع ذلك كله تجمعهم فكرة واحدة هي عداؤهم للعرب وتماسكهم لتحقيق حلمهم الكبير بإنشاء الدولة اليهودية، والحقيقة أن ما يجمعهم مصالحهم الشخصية التي هي فوق كل شيء، ولا شيء يمنع تشتتهم حين يتلقون أول ضربة قوية كما رأينا في الحربين الأخيرتين. هذا عدا انتشار الفساد بكل أنواعه في كل أوساطهم، بدءاً برؤسائهم الكبار وحتى أذنابهم الصغار مما يكفي لتفككهم وتشتتهم حين يواجهون صدمة كبيرة.

والدولة اليهودية ضعيفة جغرافياً وتاريخياً وبيئياً فهي مزروعة في وسط

شعوب تحيط بها، تكرهها وتكرههم منذ آلاف السنين، وليس ما يمكن أن يوفق بينها وبين هذه الشعوب مهما سعى الساعون ومهما كابر المكابرون والتجربة القائمة بينها وبين بعض الدول العربية منذ عشرات السنين أكبر برهان على ذلك، فمن الواضح أن هذه العلاقة أوهى من بيت العنكبوت لا يمكن أن تستمر أو تتطور إلا إلى التراجع والانحسار.

أضف إلى ذلك أن الدولة اليهودية ضعيفة اقتصادياً؛ لأن اقتصادها قائم على التسول والسرقة والنهب والاحتيال.

إذا علمنا كل هذا أدركنا أن هذا الكيان الذي نفخ ليكون كبيراً ليس له من مقومات الكبر والبقاء إلا القوة التي يسارع كلما حزب الأمر إلى الاستنجاد بمصدرها اللئيم ليمده بما يحتاجه. فهل سيستمر هذا وإلى متى؟. وهل سيدرك صانع القرار في الولايات المتحدة يوماً أن مصلحته ليست مع هذه الشرذمة من شذاذ الآفاق وإنما هي في مكان آخر!؟.

ونتيجة هذا كله يحاول اليهود السيطرة على ما يجاورهم من بلاد بأسلوب مبتكر ومسميات جديدة يخترعها لهم حلفاؤهم الأمريكيون ويساعدونهم في تنفيذها، وقد باؤوا بالإخفاق حتى الآن، ونرجو أن يكون الإخفاق حليفهم في المستقبل إذا انتبهت الشعوب العربية في الوقت المناسب - وما زال الوقت مناسباً - ووضعوا خطة نفذوها بإخلاص وعزيمة.

وأعتقد أن أول ما يجب أن يتخذ من خطوات ما يلي:

١- عدم التفكير وعدم الموافقة على إقامة أي نوع من العلاقات بين كل من الدول العربية والإسلامية ودولة اليهود، وإعلان هذا صراحة وبكل وضوح في كل المحافل والالتزام به بقوة لأن الدولة اليهودية:

- دولة غير شرعية أصلاً.

- ودولة غير ملتزمة بقرارات الشرعية الدولية - كما يسمونها - على عجرها وبجرها فهي إذن دولة خارجة على القانون كما برهنت في كل تصرفاتها منذ إقامتها وحتى الآن.
- ولأن كل الشعوب العربية والإسلامية ترفض إقامة علاقات مع اليهود المعروفين بغدرهم وخيانتهم واستعلائهم.
- ولأن الدول التي أقامت علاقات مع الدولة اليهودية لم تستفد من ذلك شيئاً ولا استفادت شعوبها ولن تستفيد، وكثير من الفئات فيها تطالب بين الحين والحين بإلغاء هذه العلاقات التي أقيمت في ليل واستمرت وما زالت مستمرة بالعنف وكبت الحريات، ولو استفتيت شعوب هذه الدول الآن لكان ردها صريحاً واضحاً بوجوب إيقاف هذه العلاقات أياً كان نوعها.

٢- السعي إلى إقناع الدول التي لها علاقات مع الدولة اليهودية الآن بقطع هذه العلاقات للأسباب التي ذكرتها في الفقرة السابقة.

ومن الغريب في هذا الشأن أن تقطع بعض الدول البعيدة علاقتها بالدولة اليهودية بعدما فعلته في حربها الأخيرة على غزة من قباحات إنسانية ومخالفات قانونية وجرائم وحشية، ولا يرف لكل هذا جفن بعض العرب المسلمين ولا يحركون ساكناً. والأغرب من هذا أن يعد بعضهم بعض الدول الإسلامية أخطر عليهم من الدولة اليهودية؛ وأي درك من السفه وصل إليه هؤلاء!!

٣- إيقاف مختلف أنواع العلاقات أو تحديدها مع كل دولة تساند الدولة اليهودية وتدعمها عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو إعلامياً. ومن المستغرب في هذا الشأن ما تفعله الولايات المتحدة بين الحين والحين من فرض عقوبات اقتصادية على هذا الشعب أو ذاك، وكأنها نصبت

نفسها قاضياً على العالم بأجمعه، ومن المستغرب أكثر أن تخاف هذه الدول المعاقَبة من هذه العقوبات، والأجدر أن تفرض هذه الدول الضعيفة العقوبات الاقتصادية على الولايات المتحدة ومن لف لفها؛ فتوقف كل التعاملات منها وإليها، وهي (أي الدول المقاطَعة) بالتأكيد لن تموت جوعاً وعطشاً، وحينئذ تدرك هذه الدول المقاطِعة أن الأمور لا تفرض بالقوة وأن زمن استغلال ثروات الشعوب قد ولى، وأن التعامل بين الشعوب يجب أن يكون بالرضا والتفاهم، وأن استخدام القوة لا ينتج إلا زيادة رد الفعل بالقوة، وعلى الولايات المتحدة وغيرها أن تعيد حساباتها وأن تحكم هي بنفسها على نفسها فتتساءل: هل وضعها العسكري والاقتصادي والسياسي والأخلاقي خارج بلادها وداخلها الآن - وبعد عقود من استعمال القوة وقمع الحريات والتسلط على عباد الله في كل مكان - أفضل من وضعها قبل ذلك أم العكس هو الصحيح؟!

٤- مقاطعة البلدان العربية والإسلامية كل مؤتمر أو اجتماع أو ندوة يشترك فيها ممثلون عن الصهاينة، مهما كان موضوعها وأياً كان موضعها، ومهما اختلف مستوى المشاركين فيها، إذا لم يكن في حضورها مصلحة مباشرة للعرب أو المسلمين. وفي هذه الحالة يجب أن يكون ممثلو الدول العربية والإسلامية منتبهين لكل طلب أو دسّ أو غمز أو انتقاص من حقوق العرب والمسلمين للرد عليه أو تصحيحه أو إلغائه.

٥- تشديد المقاطعة الاقتصادية لكل البضائع القادمة من الدولة الصهيونية ومن يتعامل معها، وكشف كل تحايل في هذا الموضوع لإيقافه، وتوسيع عمل مكاتب المقاطعة الموجودة حالياً ودعمها بالمعلومات المستجدة لتحسين قيامها بعملها على الوجه الأكمل.

٦- هناك طبعاً وسائل كثيرة غير ما تقدم يمكن معها الضغط على الصهاينة ومؤيديهم في كل بلاد العالم، وما على الفلسطينيين إلا التشبث

بأرضهم مهما قست الظروف، والتمسك بحقوقهم والإفصاح عنها وتكرارها في كل مناسبة وفي كل محفل وبكل الوسائل، وما على العرب والمسلمين في كل أصقاعهم إلا الثبات على مبادئهم والتمسك بمطالبهم العادلة والاستمرار في العمل الجاد والمقاومة الفعالة بكل أشكالها المادية والمعنوية، وفوق كل هذا ما عليهم إلا أن يتحدوا ويعلموا أن مصلحتهم في اتحادهم ودعم بعضهم بعضاً، لا في طلب الدعم حين الحاجة من الدول الأجنبية والاستناد إلى ما تقدمه لها من معونات موهومة على حساب كرامتها ومصلحتها وقهر شعوبها.

وأخيراً

أيها العرب وأيها المسلمون.. إن الدولة اليهودية أسطورة يجب أن تمحى وخرافة يجب أن تزول، وزوالها ليس معجزة أو حلماً بعيد المنال مع كل تفكك العرب والمسلمين الآن، وقد مرت بهم قبيل الحروب الصليبية ظروف أسوأ من ظروفهم الحالية ثم انتصروا حين قيض الله لهم من يجمع كلمتهم ويوحد جهودهم، والدولة اليهودية مسخ لا يستطيع المقاومة الطويلة أمام الإيمان القوي والتخطيط الصحيح والإرادة الحازمة، فهل يرى الجيل القادم تحقيق هذا الأمر ويستحق أن يقال فيه بحق: هؤلاء هم المسلمون؟